الخط العربي :

النقوش الكتابية الإسلامية المبكرة فى بلاد البنغال

بقلم : الأستاذ د. محمد يوسف صديق

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين وبعد : فقد بزغ نور الإسلام وانطلقت حضارته فى وقت كانت الحضارات السابقة فى طريقها إلى الانهيار والاضمحلال . كانت البشرية آنذاك تهيم فى ضلال الجاهلية ، وتعانى من أجوائها الملبدة بالزيغ والانحراف ، فجاءت رسالة الإسلام هبة ثمينة منحها الله تعالى للبشرية ليخرجها من الظلمات إلى النور .

جاء الاسلام بمنهج متكامل للحياة البشرية يحوى كل ما تتطلبه هذه الحياة من خير وهداية ونظام ، ويتضمن ما يكفل للبشرية سعادتها فى الدنيا والآخرة ، ولم يكن الاسلام كغيره من الأديان التى تدعو الانسان الى العزوف عن الدنيا ، فالاسلام لا يقر الرهبانية لقد جاء الاسلام ليقدم للبشرية منهاجا واقعيا سليما شاملا متكاملا ، ويبين لها دورها فى هذه الدنيا كى تقوم هى بدورها بعمارة الأرض ، وكذلك يبين لها حقيقة الآخرة لتعمل لها ، كما جاء فى قول نبى الإسلام محمد ﷺ : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » . وانطلاقا من تلك الشمولية و ذلك التكامل اللذين تتسم بهما رسالة الاسلام بدأ المسلمون يترجمون ما جاء به الاسلام من دعوة للبناء والعمران فى حياتهم العملية ، وهكذا كان ميلاد الحضارة الإسلامية العلمية العملية المتفردة بخصائصها ومقوماتها .

لقد أقام المسلمون دعائم حضارتهم على أسس ثابتة راسخة ، منطلقين من تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية ، فكانت حضارتهم متجـددة متميزة عن الحضارات الأخرى ، ولم يقتصر التراث الاسلامى على ما أنتجه العلماء المسلمون من مخطوطات ثمينـة فى مجالات العلوم الدينية والدنيوية ، بل تعدى ذلك الى ما تركه لنا الفنانون المسلمون من العمائر والصناعات الفنية فى الشرق والغرب على السواء والتى اتسمت بذوق جمالى رفيع ، ذلك أن القيمة الجمالية تعتبر من الصفات العليا التى جاءت بها الشريعة الاسلامية السمحة . وكان من أهم العناصر الجمالية فى المنتجات الفنية الاسلاميـة الخط والكتابة حيث اعتمدها المسلمون كعناصر أساسية للأعمال الزخرفية والفنيـة ، وابتكر الفنانون المسلمون أنواعا عديدة من الخطوط العربيـة وأودعوها عنـاية خاصة ، فأبدعوا وأنتجوا روائع فنية متنوعة مما أثبت أصالة الفن الاسلامى وابتكاره .

ولم يكن انتشار الحركة الفنية الاسلاميـة وازدهارها بمـا فى ذلك الخط العربى مقصورا على قطر اسلامى معين ، بل شمل البلاد الاسلاميـة كلها ، وقد لعب المشرق الاسلامى دورا هاما فى الاضافات القيمـة إلى تلك الفنون ، وفى ابتكار أنواع جديدة من الخطوط ومن أروع الأمثلة على ذلك ما عثر عليـه فى بلاد الهند ، حيث نجد أن الخط العربى وفنونه تشكل عنصرا هاما من عناصر الزخرفة فى تلك البلاد ، وقـد نقش الخط العربى بأنواعه المختلفة على اللوحات الحجرية فضلا عن استخدامه فى مجالات أخرى مثل كتابة المخطوطات .

ولما كانت هذه النقوش تحوى أعمالا مختلفة لعلماء وفنانين كان لدراستها أهمية كبيرة فى مجالات عديدة ، فالنقوش خير شاهد على تطور الكتابة وزخرفتها عبر العصور المختلفة ، وكذلك فإن نصوصها تعتبر كنزا من الكنوز العلميـة

المليئة بالمعلومات التاريخية الصحيحة عن الأزمنة الغابرة لاسيما وأن هذه النقوش كانت تحمل عادة تاريخ كتابتها واسم الحاكم الذى أمر بالبناء . وخلاصة القول فإن دراسة النقوش والكتابات الأثرية تغطى جوانب عديدة فى دراسة التاريخ والحضارة والفنون .

والنقوش الاسلامية العربيـــة فى شبه القارة الهندية بصفة عامة وفى بلاد البنغال لصفة خاصة لها أهمية كبيرة فى دراسة الحضارة و الفنون الاسلامية فى تلك البلاد ، فقـــد شهدت بلاد البنغال أزهى عصورها خلال الحكم الاسلامى الذى ازدهرت فيـه العلوم والفنون حتى وصلت إلى أوجها ، وتميزت النقوش الاسلامية العربية فى هذه المنطقة بجودة كتابتها فى الخطوط المختلفة ، وكذلك فإن نصوصها غنية بالمعلومات التاريخية المتنوعة ، فلم يكن غنى للباحث فى التاريخ والحضارة الاسلامية فى أن يعتمد عليها فى أبحاثه .

وتجدر الإشارة إلى أن المواد بالنقوش العربية فى مقالى هذا ليس تلك اللوحات المكتوبة باللغة العربيـــة فحسب ، بل تشمل جميع النقوش واللوحات التى استخدم فيها الخط العربى ، فقد قمت أيضا بدراسة النقوش والكتابات التى كتبت باللغة الفارسية ضمن هذا البحث حيث إن جميعها منقوشة بالخط العربى ، واللغة الفارسية لها أهميتها فى دراسة تاريخ الهنـد وحضارتها لأنها كانت اللغة الرسمية فى الهنـد الاسلامية وخاصة فى البلاط المغولى ، وبها كتبت كثير من المخطوطات والنقوش واللوحات فى ذلك العصر ، وكثير من النقوش تجمع بين اللغـــة العربية والفـــارسية فكان لا مفر من دراستها ، وكانت معظم النقوش المكتوبة باللغة الفارسية تحتوى على كثير من الكلمات والعبارات العربية فضلا عن بدء نصوصهـا بالبسملة والحمدلة والتهليل وآيات قرآنيـــة مختلفة وأحاديث

نبوية شريفة ، ونظرا لاستخدامها مع اللغة العربية كان لا يسع الباحث إهمالها في دراسته .

ومما لا شك فيه أن البنغال من أغنى البلاد الإسلامية في النقوش العربية في العصور الوسطى ، وقد عثر على ما يقرب من مائتي نقش تعود في تاريخها إلى الفترة ما بين ٦٠١هـ و ٩٤٥هـ ، وعلى الرغم من الأهمية التاريخية والحضارية لهذه النقوش فإن دراستها أهملت من قبل المؤرخين والباحثين ، ويعتبر هذا البحث الأول من نوعه في هذا الموضوع حيث لم يسبق إلى مجال دراسته باللغة العربية أحد .

ومع أن هذه النقوش العربية لم تدرس في البلاد العربية فإن هناك من المستشرقين وكذلك بعض علماء البنغال من حاول دراسة بعضها من الناحية التاريخية والفنية ، وإن كانوا قد مهدوا الطريق إلى البحث بسبقهم إلا أنني تمكنت من تصحيح بعض ما ورد في كتاباتهم ، كذلك قمت بقراءة لبعض النقوش التي لم تسبق دراستها من قبل وناقشت القيمة التاريخية للمعلومات الواردة فيها ، كما فصلت في أسلوبها الفني والأدبي وتعرضت بشيء من التفصيل للألقاب التي وردت في هذه النقوش ، ولا يخفى أن هذه الألقاب تمدنا بالكثير من المعلومات عن الأنظمة الحكومية والإدارية والسياسية والاجتماعية . ولما كانت معظم هذه النقوش تحمل في نصوصها تاريخ كتابتها فإن دراستها تقدم إضافات جديدة للمؤرخين والباحثين .

وفيما يلي أسماء المتاحف التي عثرت فيها على نقوش بنغالية عربية :

١ — المتحف الهندي بكلكتا في الهند ، ويحتفظ بأكبر عدد من هذه النقوش حيث يبلغ عددها حوالي خمسة وعشرين نقشا .

٢ — متحف أبحاث و رندره براجشاهى فى بنغلاديش ، ويحتفظ هذا المتحف بما يقرب من سبعة عشر نقشا .

٣ — متحف دهاكا فى بنغلاديش .

٤ — المتحف البريطانى بلندن ، ويحتفظ بسبعة نقوش بعضها فى حالة غير جيدة .

٥ — متحف بى آر سين فى مالدهة بالهند .

٦ — متحف ديناجبور ببنغلاديش .

٧ — متحف بشتاغنغ ببنغلاديش .

٨ — متحف جمعية الأدب البنغالى بكلكتا فى الهند .

٩ — المتحف الجامعى بفيلادلفيا فى الولايات المتحدة الأمريكية .

١٠ — المتحف الوطنى بكراتشى فى باكستان .

١١ — متحف غوهاتى بالهند .

١٢ — متحف بانكى بور بالهند .

١٣ — متحف بتنا بالهند .

١٤ — متحف لكنهو بالهند .

ويحتمل أن تكون هناك نقوش محفوظة فى مجموعات خاصة لهواة جمع النقوش ، وقد أشرت إلى أمثلة لنقوش كهذه خلال عرض النقوش ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكثير من هذه النقوش موجود حتى الآن فى مكانه الأصلى ، كما أن هناك نقوشا كانت قد نقلت من أماكنها الأصلية ونصبت فيما بعد على الأضرحة والمساجد فى الفترات اللاحقة ، وهذا من أشق الأمور التى واجهتها فى جمع المعلومات عن تلك النقوش .

ويلاحظ أن معظم هذه النقوش تتعلق بالمساجد ، وهناك أيضا عدد

لابأس به من النقوش التذكارية التى تسجل إنشاء المدارس والقلاع والحصون والجسور والمداخل والأسبلة والأضرحة ، ولاشك أن هذه كلها تشير إلى تقدم النهضة المعمارية والفنية فى البنغال فى تلك الفترة الإسلامية المبكرة .

وقد صنعت معظم اللوحات الحجرية من البازلت الأسود الكربونى الفحمى ، وكان هذا النوع من الأحجار كثير الاستعمال بين الفنانين فى البنغال منذ عهد ما قبــل الإسلام حيث كانوا يستخدمونه فى النحت على الأحجار مثــل عمل المجسمات والتماثيل وكذلك فى بناء المنشآت المعمارية وكثير من الأعمال الفنية الأخرى . وجدير بالذكر أن بلاد البنغال أساسا ليست بلادا جبليـة وقليلا ما توجد فيها الأحجار ولذلك كانت الكتلات الحجرية تستورد غالبــا من راج محل عن طريق الأنهار التى تقع على حدود البنغال وبهار الحالية والتى لا تبعد كثيرا عن غور وپنڈوه العــاصمتين الاسلاميتين فى العصر السلطانى ، وكذلك فإن الفنانين لم يستخدموا الأحجار الكريمــة فى الكتابات الحجرية لندرتها فى البنغال ، وهناك عدد قليل من اللوحات المصنوعة من الحجر الرملى وهى محفوظة حاليا فى المتحف الهندى بكلكتا ومتحف أبحاث و رندره براجشاهى .

ولم يعثر على أية لوحات كتابية خشبية ترجع إلى تلك الفترة مع أن بلاد البنغال غنية بالأخشاب ، ويندر أيضا أن تجد نقوشا عربية على لوحات معدنية ، وقد برع الفنانون فى استخدام الكتابات العربية من الآجر ، ويحتفظ المتحف الهندى بتحفة رائعة من هذا النوع غير أن التاريخ المحفور على الآجر فى ذلك النقش ليس كاملا .

أما طريقة نحت الكتابات على الأحجار فأغلب الظن أن الفنانين والنحاتين كانوا يكتبون أولا على أرضية اللوحة بالحبر ، ثم يحفرون أرضية اللوحة دون

الأجزاء المكتوبة لتبرز الكتابة على اللوحة ، وهذا ما نلاحظه فى جميع هذه الكتابات حيث تجدها بارزة على اللوحات التى يحيط بها من جوانبها الأربعة الإطار والمستطيل .

أما اللوحات الكتابية التى استخدمت فيها الزخارف النباتية أو الهندسية من تلك الفترة فقليلة نسبيا ، إلا أن بعض هذه اللوحات تشكل نموذجا رائعا لاستخدام العناصر النباتية فى الزخرفة ، وخير مثال على ذلك نقش بارى درغاه المؤرخ سنة ٦٤٠هـ ويمثل هذا النقش نموذجا رائعا لاستخدام العناصر النباتية كالزهور والأغصان والأوراق على أرضية الكتابة متداخلة فى الحروف ، وقد عثر أيضا على لوحات نقشت إطاراتها بالزخارف النباتية بأسلوب جميل .

وكثيرا ما نرى الأخطاء النحوية واللغوية فى نصوص هذه النقوش ، ويرجع ذلك إلى عدم إلمام النقاش باللغة العربية حيث كانوا من غير الناطقين بالعربية ، ونرى أيضا أن بعض الحروف أو الكلمات سقطت من الناسخ بسبب إهماله ، وكذلك هناك تكرار لبعض الحروف أو الكلمات فى بعض النقوش خاصة عند كتابة اسم الشهر خلال تسجيل التاريخ ، فنقرأ مثلا فى أحد النقوش « شهر رجب رجب » وتحتوى النقوش البنغالية فى تلك الفترة على كثير من الكلمات الفارسية حيث كانت اللغة الفارسية متغلغلة فى الحياة الثقافية والاجتماعية فى هذه البلاد[1].

ومن أهم المظاهر الفنية فى هذه النقوش تلك الزخارف الكتابية العربية التى تميزت بالجودة والإتقان ، والمتأمل للنقوش العربية يلاحظ أن الفنانين

(١) وكذلك لم تخل هذه النقوش من الكلمات والتعبيرات المعارضة الدين الاسلامى بسبب جهل القائمين بالحكم دقائق العقائد والأساسيات (المجلة) .

المسلمين فى البنغال لم يتقيدوا باستخدام الخطوط التقليدية الشائعة مثل الخط الكوفى والنسخى والثلث بل استخدموا خطوطا أخرى لم تكن شائعة كالخط البهارى والمسلسل، وكذلك أضافوا إليها ابتكارات فنية جديدة ، وبعبارة أخرى فإن الخطوط العربية قد نمت تحت تأثير العوامل المحلية فى البنغال واتسمت ببعض الملامح الفنية الخاصة التى جعلتها متميزة عن الخطوط العربية التى كانت معاصرة لها فى البلاد الاسلامية .

ومن أبرز المظاهر الزخرفية فى هذه الكتابات إطالة أصابع الحروف القائمة إلى الأعلى بشكل منتظم ومتناسق وإعطاء رؤوسها شكل الخطاف أو نصف الرمح أو السهم ، وكثيرا ما كانت تزين رؤوس هذه الأصابع الطويلة الحروف القوسية المنتخبة من الأسفل ، وقد عرف هذا المظهر الجمالى بأسلوب الطغرا البنغالية ، وهى تختلف عن الطغرا العثمانية اختلافا واضحا فقد استخدم الفنانون المسلمون فى البنغال أسلوب الطغرا للكتابة على الأحجار بينما اقتصرت الطغرا العثمانية فى الغالب على التوقيعات والشعارات الحكومية وكتابة البسملة وبعض الجمل الدعائية ، ومع ذلك فإن الطغرا العثمانية هى التى كانت معروفة لدى الباحثين العرب وفى الغرب فى الوقت الذى لم تحظ فيه الطغرا البنغالية على اهتمام الباحثين أو المؤرخين .

ويمكن تقسيم الطغرا البنغالية من الناحية الفنية والجمالية إلى أقسام عديدة نسبة إلى أشكال الحروف التى ابتكرها الفنانون خلال رسم تلك الحروف، وأهم هذه الأقسام أسلوب القوس والسهم و أسلوب الزورق والمجاديف وأسلوب البجع وأسلوب كتيبة الجيش ، ونلاحظ فى بعض النقوش أن ذيول بعض الحروف متصلة مع بعضها وقد أطلق على ذلك اسم الخط المسلسل ، وهناك

خط آخر فى بعض النقوش كان يكتب بطرف خاص من القلم حتى تتنوع سماكة الحروف فيه من موضع إلى آخر، وسمى هذا الخط بالخط البهارى، وكان يستخدم فى كتابة المصاحف فى مناطق مختلفة فى الهند، واستخدم الفنانون اكثر من خط فى النقش الواحد.

أما النقوش المغولية فقد تميزت عن النقوش الإسلامية السابقة فى أمور مختلفة، فنلاحظ مثلا فى كتابة تاريخ النقش أن الكتاب بدأوا يفضلون استخدام حساب الجمل بدلا من تسجيل أعداده بالحروف أو بالأرقام، وقد شاع استخدام حساب الجمل فى العصر المغولى بشكل عام فى جميع مناطق الهند، ومن الجدير بالذكر أن استخدام حساب الجمل كان قد انتشر فى كثير من الأقطار الإسلامية فى تلك الفترة لدرجة أنه استخدم فى بعض نقوش المسجد الحرام بمكة المكرمة.

أما السنة والتاريخ المذكوران فى النقوش فكانا دائما يسجلان بالتقويم الهجرى، وهى ظاهرة عامة فى الكتابات الأثرية الاسلامية فى معظم أنحاء العالم الاسلامى، ونرى بعض النقوش الاسلامية المغولية أن تسجيل السنة كان بحساب جلوس الإمبراطور على العرش.

ومن الملاحظ أن الكتاب فى العصر المغولى كانوا قد اتجهوا إلى استخدام الأبيات والأساليب الشعرية لكتابة نصوص النقوش بدلا من كتابتها بأسلوب نثرى كما كان التقليد سابقا، وتقدمت اللغة الفارسية فى هذا العصر تقدما ملموسا وأصبحت هى اللغة الرسمية فى البلاد وكتبت بها النقوش واللوحات وكثير من المخطوطات فى شتى مجالات العلوم والفنون والأدب واللغويات والعلوم الدينية. وكان لنفوذ الشيعة وسيادتهم فى الحكومة والمجتمع فى بداية العصر المغولى أثره فى نصوص بعض النقوش حيث كانت تحمل الطابع الشيعى

وتسجل المنشآت الشيعية ، إلا أن الأقلية الشيعية لم تنجح فى السيطرة على دفة الحكم ، وتقلص نفوذهم فى بلاط الامبراطور المغولى بدلهى مما اضطرهم إلى الهجرة إلى مناطق بعيدة لمزاولة نشاطهم السياسى والاجتماعى ، وقد عثر أيضا على عدد كبير من النقوش فى البنغال تتعلق بأضرحة الصوفية ومنشآتهم أو تسجل أسماءهم وألقابهم ، ويدل هذا على مركزهم الدينى فى المجتمع البنغالى ، ويبدو جليا من بعض هذه النقوش أن وقف الأراضى للمساجد والمدارس كان تقليدا شائعا فى ذلك العصر ، وتسجل نصوص بعض النقوش شروط صرف محاصيل الوقف وتحذر الناس من التصرف فيها وسوء استخدامها .

وتشير نقوش العصر المغولى إلى التفاعل الثقافى والحضارى الذى تم فى تلك الفترة بين المسلمين والهندوس ، فقد تأثر الهندوس كثيرا بلغات المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم وشارك كثير منهم فى أنشطة الدولة المغولية ، وقد كتبت العديد من النقوش الفارسية التى تضمنت أسماء هندوسية سجلت منشآت للهندوس مما يدل على الحرية الدينية التى كان يتمتع بها الناس آنذاك فى تلك البلاد .

وختاما فإن بحثى هذا المتواضع ليس إلا خطوة على الطريق لدراسة تاريخ الحضارة فى البنغال والهند عن طريق دراسة النقوش والكتابات التى عثر عليها فى تلك البلاد ، وكلى أمل أن تكون هذه الدراسة قد أسهمت فى إضافة معلومات جديده من تاريخ تلك البلاد ، وصححت بعض المعلومات الخاطئة فى المصادر التاريخية ، وفسرت بعض الأمور الغامضة فى تاريخ تلك البلاد ، ولعل هذه الدراسة تثير انتباه الباحثين والمؤرخين والمشتغلين بالفنون والآداب فتكون حافزا لهم للقيام بمزيد من الأبحاث العلمية فى هذا المجال ، والله ولى التوفيق ؟